تقديم مركز نهوض للدراسات والبحوث

مع التطوُّر الذي طرأ علىٰ الدراسات الاستشراقية المعنيَّة بالإسلام والدراسات الإسلامية، برزت عدَّة اتجاهات منهجية في معالجة قضايا العلوم الإسلامية المختلفة، انشغل بعضها بالسوسيولوجيا التاريخية لهذه العلوم في حقبٍ أو مناطقَ محدَّدة، وانشغل الآخر بتحليل النصوص الفقهية أو الكلامية بمختلف أنماطها (تصنيف، فتاوىٰ، قضاء)، والحفر خلف تشكُّلات بنية هذه الآراء والأفكار الدينية.

وقد برزت أسماءٌ أكاديمية مرموقة حاولت إيجاد مقارباتٍ أكثر تركيبيةً لمعالجة النصوص والسياقات التي وُلِدت فيها الآراء والمذاهب الإسلامية المختلفة، وطرحت نماذجَ تفسيريةً جديدةً لطبيعة التفاعل الحاصل بين النصوص والمتلقين لها، سواء من علماء الدين أو عموم المسلمين.

ومن أُولىٰ المدارس التي انشغلت بدراسة الفقه الإسلامي في الغرب مدرسةُ المستشرق إجناتس جولدتسيهر، وتلميذه الذي بنىٰ علىٰ مذهبه جوزيف شاخت؛ إذ عُدَّا روَّاد هذا الاتجاه المعنيِّ بدراسة العلوم الإسلامية في الغرب منذ أوائل القرن العشرين، وقد واجهت كتاباتهم لاحقًا انتقادات منهجية متعدِّدة[1].

---

(١) انظر نقد الدكتور الحسان شهيد لكتاب شاخت «**أصول الفقه المحمَّدي**» علىٰ موقع مركز نهوض للدراسات والبحوث، علىٰ الرابط:

https://nohoudh-center.com/أصول-الفقه-المحمدي-لجوزيف-شاخت،-مر/#_ftn1

ومع تزايد اشتباك الدراسات الفيلولوجية والأنثروبولوجية مع دراسات الإسلام في الغرب، جوَّد عددٌ من الأكاديميين أدواتهم المنهجية وطرقَ اطلاعهم علىٰ المصادر الإسلامية الأصيلة، وحسَّنوا من أطروحاتهم في هذا المجال، فبرزت أسماء أكاديمية مرموقة تمثِّل هذا التوجُّه الجديد في الدراسات الإسلامية، منها علىٰ سبيل المثال: طلال أسد ووائل حلاق، اللذان حاولا الجمعَ -بشكلٍ متميزٍ- بين الإثنوغرافيا والتحليل المكثَّف للنصوص العربية الإسلامية، داخل الأُطر التحليلية الحديثة الرائجة في العلوم الاجتماعية، مُبرزين أدوات التحليل الأنثروبولوجي بوصفه منطلقًا أساسيًّا لمعالجاتهم. وقد استلهم آريا نكيسا Aria Nakissa -مؤلِّف كتابنا هذا- الخبرات المنهجية التي راكمها طلال أسد ووائل حلاق في هذا المجال في تجويد أطروحته هنا، بالإضافة إلىٰ العمل الرائد لبرينكلي ميسك Brinkley Messick: «أُمَّة القلم/ الكتابة The Calligraphic State»[1].

يقدِّم هذا الكتاب منظورًا مركَّبًا للنظر في التلقي العقلي والسلوكي للأحكام الشرعية داخل أوساط التعليم الديني الإسلامي، حالة الأزهر في مصر بالتحديد، حيث يجمع المؤلف بين نظريتَيْن: **النظرية الأولىٰ** هي «نظرية الممارسة» بوصفها نظريةً كاشفةً للمسافة بين الحكم الشرعي ولحظة الامتثال السلوكي له، سواء كانت هذه المسافة بين النصِّ والشيخ، أو بين الشيخ والمتلقين عنه. أما **النظرية الثانية** فهي «نظرية الهرمنيوطيقا»، التي تقدِّم طريقةً لمعرفة كيف تكشف الأفعال عن مكنونِ العقول، سواء كانت هذه الأفعال تُشاهد مباشرةً أو تُروىٰ في النصوص والكتب.

وتركِّز أطروحة هذا الكتاب علىٰ اختبار الأدوات التحليلية التي يقترحها المؤلِّف علىٰ حالة التعليم العالي الإسلامي في مصر الحديثة، ويشتغل المؤلِّف علىٰ الجانبَيْن الرسمي والتقليدي لتعميق النظر في بنية عملية التلقي والتلقين للمضمون المعرفي الديني في هذه المحاضن. ويراوح المؤلِّف بين

---

(١) Brinkley Messick, **"The Calligraphic State: Textual Domination and History in a Muslim Society"**, University of California Press (1996).

العرض التاريخي لطبيعة الدرس الفقهي في حقبة ما قبل الحداثة، الذي يسمِّيه «التعليم الإسلامي التقليدي»، وبين المعالجة التحليلية لمختلف الدروس الفقهية بعد وصول الحداثة إلىٰ مصر. وقد علَّل المؤلِّف هذه المراوحة بأنه أراد أن ينقض بعض الاتجاهات التحليلية التي تصوِّر حالة الدرس الفقهي ما قبل الحداثي بأنها حالةٌ جامدةٌ وراكدةٌ وخاليةٌ من التفاعل مع مستجدات الواقع.

ويمثِّل هذا الكتاب إضافةً رائدةً في الدراسات الأنثروبولوجية المعنيَّة بالدرس الفقهي الحديث في مصر، وهو ما دفع **مركز نهوض للدراسات والبحوث** إلىٰ تقديم ترجمته العربية للقارئ العربي، إسهامًا منه في إثراء المكتبة العربية بهذا النوع المهمِّ من الدراسات الإسلامية.

كما يعلن هذا الكتاب انتماءه بوضوح إلىٰ الأنثروبولوجيا التأويلية. ومن المعلوم أنه إذا كانت الأنثروبولوجيا قد ظهرت في القرن التاسع عشر، فإن الأنثروبولوجيا التأويلية لم تتأسَّس إلَّا في مرحلة متأخرة، حيث ظهرت في النصف الثاني من القرن العشرين مع كليفورد غيرتز، وذلك في سياقٍ خاصٍّ إن أردنا ضبطه، وهو بالتحديد سياق السجال «الإبستمولوجي» في مقابل الأنثروبولوجيا البنيوية والوظيفية.

وتُعَدُّ المقاربة السيميولوجية أهمَّ منظورٍ منهجيٍّ استعملته الأنثروبولوجيا التأويلية في بداية تأسيسها، وتوسُّلها لهذه المقاربة هو ما جعلها تعيد النظر جذريًّا في المفهوم الأنثروبولوجي للثقافة الذي كان يُقدَّم مع كثيرٍ من الدراسات الأنثروبولوجية من منظورٍ بيولوجيٍّ وسيكولوجيٍّ.

لقد حرص كليفورد غيرتز في إعادة بنائه لمفهوم الثقافة علىٰ رفض نظرية إدوارد تايلور، بل وحتىٰ نظرية كلايد كلوكون، وذلك من أجل التأسيس لأنثروبولوجيا تأويلية. وبما أن الأنثروبولوجيا -بمحض تعريفها اللغوي- هي علم الإنسان/الإناسة، وبما أن الإنسان كائنٌ رمزيٌّ؛ فإن ما يتناسب مع المنظور الأنثروبولوجي حقَّ التناسب هو مقاربة الظاهرة الإنسانية من منظورٍ تأويليٍّ. ومستند هذه المقاربة هو رؤية الأشياء من وجهة نظر

الفاعل. وقد حاول الكتاب الذي بين أيدينا أن ينتهج هذا المنظور، فهو يلاحظ الظاهرة ويصفها (التعليم الديني في مصر)، ويسعىٰ إلىٰ أن يستنطق كيف يرىٰ الشيوخ والمتعلِّمون المنظومة التعليمية ومحتوياتها.

وهنا تأتي أهمية السوسيولوجي الألماني ماكس فيبر، الذي يدين له مختلف الأنثروبولوجيين التأويليين، حيث كان الرائد الذي أكَّد وجوب تغيير قواعد النظر السوسيولوجي، واعتماد التأويل لأنه مدخلٌ إلىٰ فهم المجتمعات انطلاقًا من مفهوماتها وتصوراتها، بدلًا من إسقاط مفاهيم وتصوراتٍ لا تنتمي إلىٰ المجتمع موضوع الدراسة.

أما الجديد الذي يقدِّمه كتابنا هذا فهو الإسهام النظريُّ الذي يطرحه، حيث يُضاف إلىٰ قائمة الجهود الأكاديمية الغربية الجديدة والمفيدة فيما يتعلَّق بالبحث فيما يمكن وصفُه بـ«علم اجتماع النص والممارسة الدينية»، حيث أولتْ هذه الدراسات اهتمامًا مكثفًا بالنصوص الشرعية، سواء القرآن والسُّنة أو نصوص العلماء، بالإضافة إلىٰ الاهتمام بتفاعل المسلمين العقلي والسلوكي والسياقي مع هذه النصوص. وهو الذي بلغ أَشُدَّه هنا مع أطروحة المؤلِّف الذي مزج بين عدَّة أدواتٍ منهجيةٍ في حقل العلوم الاجتماعية، لينجز لنا هذا العمل التحليليَّ المتميز.

كما يركِّز هذا الكتاب علىٰ حالة الدرس الفقهي في الأزهر، بوصفها دراسة حالة تعطينا -كما سيظهر خلال الكتاب- عمقًا تحليليًّا أكثر دقَّةً وانضباطًا علىٰ المستوىٰ المنهجي، بالإضافة إلىٰ معايشة المؤلِّف للحالة المدروسة وتفاعله معها تفاعلًا مباشرًا، وإجرائه المقابلات وتدوينه الملاحظات خلال إقامته في مصر، وهو الأمر الذي أكسبه ميزةً منهجيةً ضروريةً للبحوث الميدانية التحليلية.

وهنا يأتي سؤال مهمٌّ: ما أهمية مثل هذه الدراسات بشكلٍ عام؟ وما الإضافة التي تقدِّمها للمعرفة العربية الإسلامية؟

وجواب ذلك إجمالًا: أن البحث في تشكُّلات البنىٰ المعرفية في أيِّ بيئة أو حضارة يُعَدُّ بحثًا في التاريخ والماهية وتفكيكًا تلقائيًّا لمكونات

الوعي الراهن ومآلاته. وليس هذا التفكيك تفكيكًا بغرض الهدم ويقطع مع الماضي، وإنما هو تفكيكٌ كاشفٌ لتاريخٍ طويلٍ من التراكم المعرفي والثقافي، والبحث في أدقِّ مكوناته يكشف أمورًا كثيرةً تتعلَّق بالأبعاد النفسية والاجتماعية والدينية التي كانت تحكم السياق التاريخي المدروس. وإذا ما تتابعت الدراسات في التنقيب عن ظواهرَ اجتماعيةٍ وسياسيةٍ دقيقةٍ في مدًى زمنيٍّ محدَّد، فمن المؤكَّد أننا سنخلص إلىٰ نتائجَ مهمَّة تكشف لنا أجزاءً من الصورة التاريخية التي لا نعلم كلَّ تفاصيلها بطبيعة الحال.

ومن العوامل التي دفعت **مركز نهوض للدراسات والبحوث** إلىٰ ترجمة هذا العمل، هو تفرُّق المعطيات السوسيولوجية والأنثروبولوجية المتعلِّقة بالمضمون المعرفي الإسلامي بين كثيرٍ من الكتب والمجلدات التراثية، وغياب التصنيف التخصُّصي العربي الذي يجمع شتات هذه المعطيات، فضلًا عن غياب ما يتعلَّق بالتاريخ الإسلامي الحديث؛ إذ إن الفضاء المعرفي العربي تُعوزه مثل هذه الدراسات التاريخية التحليلية بشكلٍ واضحٍ، وإن توافرت معطياته وسهلت علىٰ الباحث العربي.

وأخيرًا، لا بدَّ من الإشارة إلىٰ ملاحظة مهمَّة قد تعرض للقارئ العربي في أثناء هذا الكتاب، ويمكن بيانُها علىٰ النحو التالي:

نظرًا للتباين الجليِّ بين المعجم الإنجليزي والمعجم العربي الإسلامي فيما يتعلَّق بالمفردات الدينية، فإن نقل مقصود المؤلِّف من حقله الدلالي الإنجليزي إلىٰ العربية يتطلب وعيًا من القارئ بصعوبة توليد مفردة/ مفردات إنجليزية ترادف المفردة العربية الدقيقة التي يقصدها المؤلِّف؛ لذا سنجد أن المؤلِّف قد استخدم عدَّة مفرداتٍ وجملٍ تقتضي دلاليًّا -في العربية- لوازمَ باطلةً في حقِّ الله ﷻ، وقد حاول المؤلِّف والمترجم -قدرَ المستطاع- تجنُّب هذه اللوازم من خلال بيان مقصده الدقيق من استخدام هذه المفردة/ المفردات، لكنها تبقىٰ في التقييم العقائدي ذات إشكالٍ وتحفُّظ؛ ولذا وجب التنبيه. والحقيقة أن المؤلف قد لازمته رغبة منهجية ملحَّة -فيما يبدو- أن يقارب المفاهيم والديناميات التي يسعىٰ إلىٰ تحليلها من خلال

التمثيل والتكييف البشري الواقعي، ولو تطلَّب منه ذلك تشبيه أو تكييف الخالق بالمخلوق أو العكس، وهو أمر متفهَّم في السياق غير الإسلامي؛ لأنه خالٍ من التحرزات العقديَّة التي تحكم السياق المعرفي الإسلامي.

❁ ❁ ❁

تأتي الترجمة العربية لهذا الكتاب في سياق مشروع معرفيٍّ يقوم **مركز نهوض للدراسات والبحوث** من خلاله بنقل الخبرات الأكاديمية الغربية في مجال دراسات الإسلام في الغرب، التي تُعنىٰ اعتناءً رئيسًا بالمعالجات السوسيولوجية والأنثروبولوجية والفيلولوجية والتاريخية لفروع المعرفة الإسلامية: القديمة والوسيطة والحديثة.

وقد قدَّم المركز عددًا من الترجمات المهمَّة في سياق هذا المشروع، منها كتاب «**ديناميات الشريعة: الشريعة الإسلامية والتحولات الاجتماعية والسياسية**» الذي حرَّره وقدَّم له بمقدمة ثريَّة الأنثروبولوجي الأمريكي تيموثي ب. دانيالز، وكتاب «**روح الشريعة الإسلامية**» لجون بول شارناي، وقام علىٰ ترجمة كلا الكتابَيْن الأنثروبولوجي التونسي المرموق الدكتور محمد الحاج سالم. كما نشر المركز النسخة العربية لكتاب «**إسلام الدولة المصرية: مفتو وفتاوىٰ دار الإفتاء**» للباحث الدنماركي جاكوب سكوفجارد بيترسو، وكتاب «**إحياء التشريع الإسلامي: استقبال القانون الأوروبي والتحولات في الفكر التشريعي الإسلامي في مصر في الفترة ما بين (١٨٧٥-١٩٥٢م)**» للباحث الأمريكي ليونارد وود، وهذا الكتاب الأخير إحدىٰ الدراسات المهمَّة التي تدرس التفاعلات بين الشريعة والقانون في مصر الحديثة.

وقد أدرك المركز أهمية العناية بمثل هذه الدراسات بوصفها حقلًا معرفيًّا يُسهم في إثراء البحث الديني العربي الإسلامي، وعيًا منه بضرورة تجديد النظر التقليدي للتراث الفقهي الإسلامي لا القطيعة معه، وإسهامًا منه في تقديم الدراسات الغربية للباحثين والمتخصِّصين العرب لمواكبة المعالجات الجديدة للفقه الإسلامي وتطويرها.

وبالإضافة إلىٰ العناية بالترجمات، أقام **مركز نهوض للدراسات والبحوث** ورشتي عمل ضمَّت عددًا من أبرز الباحثين والأكاديميين من العالميْن العربي والغربي، أولاهما أُقيمت في مدينة مراكش بعنوان: «**العلوم الإسلامية وتجديد المنهج: الرؤية، والمنهج، وكيفية التنزيل**»، وأُقيمت الثانية بمدينة بيروت بعنوان: «**أولويات البحث في العلوم الإسلامية**»، وكلتاهما تناولت كثيرًا من النقاشات والمشاركات المهمَّة في سياق مشروع المركز بهذا الصدد.